

الدرس الحادي عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } الآيات [النجم: ١٩-٢٠] .

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

هذه الترجمة ((باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما)) عقدها رحمه الله تعالى لبيان أن ذلك من الشرك بالله المنافي للتوحيد والمصادم له ، لأن التوحيد قائم على إخلاص العمل لله عز وجل والتوكل عليه وحده واللجوء إليه وحده دون سواه في طلب النفع والدفع والعطاء وغير ذلك من حاجات العبد ومصالحه ، فلا يلجأ إلا إلى الله عز وجل ولا يفزع إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل حاجته إلا منه تبارك وتعالى ، فمن كان يقصد حجراً أو شجراً أو نحوهما متعلقاً قلبه بها راجياً أو طامعاً أو ملتمساً بركة أو نفعاً أو دفعاً فقد أشرك هذه الأشياء بالله عز وجل ، وهي لا تملك لنفسها نفعاً فضلاً من أن تملك شيئاً من ذلك لغيرها . فالترجمة عقدها رحمه الله لبيان أن التبرك بالشجر أو الحجر أو نحوهما ؛ «نحوهما» مثل القباب والأضرحة والزوايا والمغارات والبقاع والأترية وغير ذلك من الأشياء فإن ذلك كله من الشرك بالله عز وجل .

وقوله ((من تبرك)) «مَنْ» : اسم شرط ، وفعله «تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما» . وجواب الشرط محذوف وهو فقد أشرك ؛ من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما فقد أشرك . وحذف رحمه الله تعالى جواب الشرط لدلالة ما ساقه في الترجمة من أدلة عليه ، فالأدلة التي ساقها الآيات من سورة النجم وحديث أبي واقد الليثي دليل على أن هذا التبرك بالشجر والحجر ونحوهما من الشرك بالله سبحانه وتعالى كما سيأتي معنا دلالة ما ساقه رحمه الله على ذلك .

ويحتمل أن تكون «مَنْ» اسم موصول بمعنى الذي ؛ فيكون تقدير الكلام : حكم الذي تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما ؛ أي أن حكمه هو أنه أشرك بالله عز وجل كما تدل على ذلك الآيات والحديث الذي ساقه رحمه الله تعالى في الترجمة .

وقوله ((تبرك)) التبرك : طلب البركة والتماسها . والبركة : هي النماء والزيادة . وتكون البركة التي تُطلب قد يقصد بها البركة في الصحة أو البركة في المال أو البركة في العمر أو البركة في الأولاد أو غير ذلك ، فالبركة هي النماء والزيادة وهي في الجملة دلالتها تدل على أمرين :

■ الأول : ثبات الموجود ؛ فعندما يسأل مثلاً سائل البركة في صحته أو البركة في ولده أو البركة في ماله أو غير ذلك فإنه يعني ذلك ثبات الموجود .

■ ويعني من ناحية أخرى أيضاً نماءه وزيادته . فهي تعني الثبات والكثرة ؛ ثبات النعمة وكثرتها .
فالشيء الذي يثبت عند الإنسان ويبقى هذا من البركة ، وأيضاً الذي يزداد خيراً ونمَاءً فهذا من البركة .

التبرك بالشجر والحجر ونحوهما وهو من صنائع المشركين وأفعال أهل الجاهلية هو : تعلق بهذه الأشياء وارتباط قلبي بها بحيث يقصدها ملتصقاً بركة من جهتها ؛ سواء بإصااق بدنه بها ، أو مسح يده عليها ، أو مكثه الطويل عندها ، أو غير ذلك من الطرائق والأعمال التي يصنعونها لالتماس البركة منها ، أو حتى أيضاً يعلق عليها أشياء إما ثيابه أو مثلاً يعلق سلاحه أو شيء من متاعه يعلقها على ما يطلب البركة من جهته التماساً للبركة . من ذلك : أن يمسح عليها بيده يطلب بركة من جهتها ويلتمس بركة من جهتها طالباً نفعاً أو دفعاً أو عطاءً أو منعاً أو غير ذلك ، ولهذا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما قبل الحجر الأسود ماذا قال ؟ والناس من حوله يسمعون كلامه وأراد أن يسمعهم ذلك قال : «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْبِلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» ، فتقبل الحجر الأسود واستلامه باليد واستلام الركن اليماني هذه عبودية محضة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى اتباعاً للرسول الكريم وسيراً على منهاجه القويم ، لا أن من يقبل الحجر أو يمسح الحجر أو يستلم الركن اليماني يفعل ذلك لالتماس بركة أو رجاء بركة من الحجر أو الركن ، وإنما يفعل ذلك تقرباً إلى الله وعبودية لله سبحانه وتعالى تأسيساً بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، أما الحجر الأسود والركن اليماني فهو كما قال عمر حجر لا يضر ولا ينفع قال : «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْبِلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» .
قال رحمه الله تعالى : ((باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)) أي فقد أشرك .

ساق أولاً هذه الآيات الكريمات من سورة النجم ؛ قول الله تعالى -والخطاب للمشركين الكفار عبدة الأصنام والأوثان- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنِ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُهَا أُثْمَ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ ؛ هذا سياق عظيم جداً في إبطال الشرك وفساد أهله وبطلان ما هم عليه وأنهم لا يملكون على عملهم هذا دليلاً أو حجة ، بل هو قائم على فساد علم أو فساد إرادة أو فسادهما معاً كما سيأتي إيضاح ذلك وبيانه .

قال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ أي أخبروني عنها ماذا تنفع ؟ وماذا تُعني ؟ وأي شيء تجدي ؟ وهي لا تملك لنفسها فضلاً أن تملك لغيرها ؛ أخبروني عنها ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وهذا مخاطبة لعقول هؤلاء إن كانوا يعقلون ، هذه التعلقات التي تتعلقونها بهذه الأشياء اللات والعزى ومناة ماذا يرجى منها ؟ أخبروني ماذا يرجى منها ؟ أي نفع يرجى منها وهي لا تملك لنفسها شيئاً فضلاً أن تملك لغيرها ؟

﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وهذه الأسماء الثلاثة أسماء أصنام كانت تُعبد وتُقصد ويلتجأ إليها وتُصرف لها أنواع العبادة ﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ ، وحُصت بالذكر هنا من بين أصنام كثيرة وأوثان عديدة كانت تُعبد في الجاهلية لأنها أعظم هذه الأوثان شأناً عند عابديها وأعلاها مكانة عندهم ، فهي أعظم أوثانهم وأكبر أصنامهم فحُصت بالذكر لأنها أعظم الأصنام عند عابديها وأكبرها في نفوسهم .

وإذا اتجه البيان لبطلان عبادة هذه الأصنام التي هي أكبرها عندهم وأعظمها شأنًا عندهم وأكثر تعلقهم بها فغيرها من الأصنام يكون من باب أولى ، ولهذا حُصِّت بالذكر ، وإلا فإن الأصنام كانت كثيرة . لما دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة عام الفتح حطم الأصنام التي في البيت وحوله فكانت تبلغ ثلاثمائة وستين صنماً ، فالأصنام كانت كثيرة هذه التي حول البيت ، وأما الأصنام المتفرقة هنا وهناك وفي الأمكنة المتنوعة كثيرة جداً . فهذه الأصنام الثلاثة «اللات والعزى ومناة» حُصِّت بالذكر لأنها الأشهر والأعظم والأكبر عند هؤلاء المشركين .

و«اللات» : صنمٌ كان في الطائف في ثقيف ، وأصل وجود هذا الصنم : أن رجلاً كان يُلْتُ السويق - اللات من اللت وهو العجن - كان يلت السويق: أي يعجنه ، يقوم بذلك من أجل خدمة حجاج بيت الله ، يعمل ذلك على وجه الإحسان وإكرام الحجاج ، فكان هذا صنيعه ؛ رجل عُرف بالكرم ، بخدمة الحجاج ، بصنع السويق لهم يُلْتَه بنفسه يعجنه بنفسه ، عُرف بذلك وعُرف بهذا الإحسان واشتهر به ؛ فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه معبوداً لهم ، وأيضاً عكفوا على الصخرة التي كان يلت عليها السويق ، ولهذا عندما نطلع على كلام أهل العلم في المراد باللات؛ منهم من يذكر أن المراد به الصخرة التي كان يلت عليها ذلك الرجل السويق اتخذوها معبوداً ، ومنهم من يذكر أنهم عكفوا على قبره ، وهذا ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما قال أهل العلم لا يمنع ذلك أن يكونوا جمعوا بين الأمرين : بين العكوف على قبره هو ، وبين أيضاً التعلق والارتباط بتلك الصخرة التي كانوا يعظمونها ويعبدونها ويقصدونها ويلتجئون إليها . والنبي عليه الصلاة والسلام أرسل المغيرة بن شعبة إلى ذلك الوثن فحطّمه وكسره وأحرق الأشياء التي عنده فما بقي له أي وجود .

و«العزى» : هذا وثنٌ آخر وهو شجرة كان يقصدها المشركون ويلتجئون إليها ويتقربون إليها بأنواع التقربات ، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام بعد الفتح إليها خالد بن الوليد قطعها وأيضاً أحرق المكان ولم يبق لها أي وجود، وكان لها شأن عظيم عند المشركين تعلقاً بها وقصداً لها ، وفي يوم معركة أحد كان أبو سفيان ومن معه يقولون : "لنا العزى ولا عزى لكم" ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((أجيبوهم قولوا :الله مولانا ولا مولى لكم)) ؛ إلى هذه الدرجة تعلقهم بهذه الأصنام وهذه الأحجار ، في القتال وفي الحروب يبقون على مثل هذا التعلق والافتخار بالارتباط بهذه الأصنام يقولون "لنا العزى ولا عزى لكم" . والعزى شجرة لا تملك لنفسها شيئاً فضلاً أن تملك لغيرها!! ولهذا لما بعث النبي عليه الصلاة والسلام إليها خالد بن الوليد قطع الشجرة وأحرقها ولم يبق لها أي ذكر ، فلم تملك دفعاً لنفسها فضلاً أن تملك شيئاً من ذلك لغيرها .

و«مناة الثالثة الأخرى» : هذه صخرة كانت على ساحل البحر الأحمر قريباً من فُديد بين مكة والمدينة ، وكان المشركون يعظمونها ، وأكثرهم تعظيماً لها الأوس والخزرج ، وكانت في طريقهم في الحج إلى مكة يمرون بها في الذهاب والإياب ، حتى إنهم بعد أداء أعمال الحج لا يخلقون رؤوسهم بمكة بل يخلقون رؤوسهم عند مناة ، من شدة تعظيمهم لذلك الصنم يخلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده بعد الحج ثم يعودون إلى المدينة .

فهذه الأصنام الثلاثة «اللات والعزى ومناة» كانت أكبر أوثان المشركين وأكبر الأصنام التي يتعلقون بها . ولو تأملت : اللات عكوفٌ على قبر رجل صالح عُرف بالكرم وخدمة الحجاج وصنع السويق لهم إلى غير ذلك ، رجل عرفوه بصلاحه في هذا الجانب الكرم السخاء إلى غير ذلك فلما مات عكفوا على قبره . والعزى شجرة ، ومناة صخرة ، والترجمة التي عقدها «من تبرك بشجرٍ» مثل العزى «وحجرٍ» مثل مناة «ونحوهما» أي من التعلق مثلاً بالمشايخ أو ما يسمون بالأولياء أو غير ذلك ، مثل ما كانوا يتعلقون بذلك الرجل الذي عُرف باللات أي الذي يلت السويق يعجنه .

أيضاً عندما تتأمل في هذه المعبودات التي حُصت بالذكر هنا «اللات والعزى ومناة» وهي متنوعة ؛ اللات: رجل، العزى: شجرة ، مناة: صخرة؛ تجد أن ما وجد فيما بعد من شريكيات وتعلقات باطلة ترجع في الغالب إلى ذلك، إما تعلق بقبر رجل صالح ، أو تعلق بشجرة من الأشجار ، وهذا موجود إلى الآن في بعض المناطق توجد أشجار معظمة ، حتى إنه في بعض المناطق إذا جعل طريق بين بلد وبلد ومرّ بالشجرة المعظمة لا يقطعونها يحرفون الطريق ويُميلونه عنها وتبقى مقصداً للناس وملجأً إليهم ويتبركون بها؛ يعلّقون بها خيوط أو حروز أو ملابس أو أشياء من هذا القبيل ، لا يزال هذا . وأيضا التعلق بالصخور هو مثل تعلق أولئك بمناة ؛ فرجعت الشريكيات إلى هذه الأمور الثلاثة «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ، فكأن هذه التسمية لهذه الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كما أنها تسمية لأعظم الأصنام والأوثان التي كانت تُعبد ويعبدها المشركون أيضاً في الوقت نفسه جمعت أمهات ما يُقصد ، لأن ما يُقصد التجاءً وخضوعاً وذلاً إما قبر أو شجرة أو حجر اللات والعزى ومناة ، في الغالب ترجع إلى هذه الثلاثة : قبر أو شجر أو حجر .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ومن قول المشركين أن هذه الثلاث اللات ومناة والعزى بنات الله ، وهذا ذُكر في بعض كتب التاريخ أن المشركين كانوا يقولون : "اللات والعزى ومناة بنات الله وهن يشفعن عنده" كانوا يقولون ذلك ويخصّون هذه الثلاث حتى في الطواف ، في طوافهم بالبيت يقولون : «اللات وعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرائيق الأولى وإن شفاعتهن لثري»

يقولون هذه الكلمات حول بيت الله ، وهم يطوفون يهتفون بذكر هذه الأصنام والأوثان التي يتعلقون بها . فقليل ذلك وأيضاً ما جاء عن هؤلاء أنهم يقولون الملائكة بنات الله .

قال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ كان الواحد منهم إذا بُشِّرَ بمولودة أنثى ماذا يحدث له؟ من شدة ما قام في قلوبهم من كراهية للإناث ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩] ، يكره الواحد كراهية شديدة أن تُنسب إليه الأنثى أو تكون بنته أنثى ، وفي الوقت نفسه يقولون : الملائكة بنات الله أو الإناث بنات الله !!

قال : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢٠)﴾ تلك إذا قِسْمَةُ ضِرْيَ ﴿أَي جَائِرَة . والقوم قام في قلوبهم للبنات كراهية لا توصف، شديدة جداً ، وتقرأ في أخبارهم عجباً ، حتى إن بعض المشركين كما ذُكر في بعض كتب التاريخ من شدة كراهيته للأنثى إذا بدأت زوجته في الطلق وقت الولادة يحفر تحتها حفرة ، وهي في الطلق يحفر تحتها حفرة عميقة وأول ما يخرج المولود إن كان أنثى مباشرة يلقيه في تلك الحفرة ويدفن عليها ، ما يعيش ولا لحظة واحدة من رحم أمه إلى الحفرة ، من شدة الكراهية التي قامت في قلوبهم للأنثى . وبعضهم يصبر ويتوارى من القوم ولا يريد أحد يسأله يقول ماذا جاءك من الكراهية الشديدة للأنثى . ومما ذُكر عنهم في وأد البنات ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩] أن بعضهم يتركها حتى تبلغ ست سنوات أو خمس سنوات ثم يقول لأُمها جَمِّلِيهَا طَيِّبِيهَا زِينِيهَا فَيَأْخُذُ بِنْتَهُ وَتَمَشِي مَعَهَا كَأَنَّهَا إِلَى فِسْحَةٍ وَإِلَى نَزْهَةٍ جُمِلَتْ وَطُيِّبَتْ وَزُيِّنَتْ فَيَكُونُ أَعَدَ لَهَا حَفْرَةً فِي الصَّحْرَاءِ فَيَأْتِي بِهَا وَيَقُولُ انْظُرِي فَتَنْظُرُ فَيَدْفَعُهَا مِنْ وَرَاءِهَا وَيَدْفِنُ عَلَيْهَا وَهِيَ حَيَّةٌ .

الشاهد من ذلك أن القوم يكرهون الإناث كراهية شديدة ثم يقولون الإناث بنات الله!! ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ النَّاتِي﴾ (٢٠) تِلْكَ إِذَا قَسَمَةُ ضَيْرَى (٢٢) ﴿أي جائزة ظلمة .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ؛ اللات والعزى ومناة وغيرها أيضا هي في الحقيقة أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما هي إلا مجرد أسماء ؛ العزى : شجرة مثل غيرها من الأشجار ، مناة : حجر مثل غيره من الأحجار ، اللات : أيضا رجل مثل غيره من الرجال ، وفي من هو أحسن منه ومن هو أسوء منه ، لكن عظموا هذه الأشياء تعظيماً لا يليق إلا برب العالمين فخصعوا لها وعبدوها وذلوا لها وصرفوا لها أنواع العبادات ، وإلا هي في الحقيقة مثل غيرها من الأشياء لكن سموها بهذه الأسماء آلهة ومعبودات وصرفوا لها أنواع العبادات .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ يعني هذه تسمية توارثتموها عن الآباء والأجداد ، والتوارث هذا سبحانه الله مصيبة على كثير من الناس ، حتى في زماننا هذا بعض الناس ينشأ في بلده على بعض العقائد الباطلة ويتضح له بطلانها وفسادها ويقف على بعض الأدلة التي تدل ثم يمتنع عن الدخول في هذا الحق ويبقى على الباطل الذي كان عليه ويقول : ماذا أقول للآباء والأجداد ؟ وكيف أغَيّر ما عليه آبائي وما عليه أجدادي ؟

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ، والحجة سميت سلطاناً لأنها تأسر القلب ولا يتمكن من الانفلات منها ، تأخذ بالقلب ولها سلطة عليه ولهذا سميت الحجة سلطاناً . قال ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي : ما أنزل بها من حجة .

وهذا وحده برهان كافي في إبطال كل باطل ؛ أعني قول الله ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يكفي في إبطال كل باطل أن يقال : ما أنزل الله به من سلطان ، لأن العقائد التي بين الناس ويعتقدونها والأعمال التي يعملونها هي إما حق أو باطل ، والحق هو الذي نزل به السلطان أي حجة وبرهان من الله ، والباطل ما لم ينزل به تبارك وتعالى سلطاناً . ولهذا كان الأنبياء في طريقتهم في إبطال عقائد أقوامهم الباطلة يذكرون هذه الحجة ؛ أنظر قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن قال : ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٣٩-٤٠] فأبطل عقائدهم بقوله : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .

في ضوء ذلك نستطيع أن نقول : العقائد التي عند الناس وبينهم هي على قسمين :

١- عقائد نازلة : أي نزل بها وحي ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢-١٩٥] .

٢- وعقائد نابتة كيف نبتت ؟ إما بالرأي أو بالعقل أو بالتجربة أو غير ذلك من وسائل الاستدلال الكثيرة التي نبتت بموجبها عقائد كثيرة بين الناس .

فإذا أكل عقيدة لم ينزل بها سلطان أي حجة وبرهان من الله فهي باطلة ، ويكفي دلالة على بطلانها أنها لا سلطان عليها ولا حجة نازلة من رب العالمين ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .

إذا كان هذا شأنها لم ينزل بها حجة وبرهان من أين جاءت ؟ وما منبعها ؟ وما مصدرها ؟

قال : ﴿ إِنِّي يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ ؛ الظن هذا بيان لفساد هؤلاء في الناحية العلمية ، فعلومهم ظنون قائمة على الظنون الباطلة ، هذه بضاعتهم في العلم ، بضاعة أهل الجاهلية في العلم : الظنون . وهذا النوع من الحال التي كان عليها أهل الجاهلية في أن علومهم إنما هي ظنون هو حال أيضا من كان على شاكلتهم وطريقتهم ، تجد أقواما عندهم عبادات وأعمال وعقائد ثم إذا بُحث معهم ما الدليل ؟ أحدهم يروي مناماً والآخر يحكي قصة وثالث يبيّن على تجربة ؛ هذه علومهم ﴿ إِنِّي يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ، ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ هذا بيان لفسادهم من جهة الإرادة . فاجتمع في هؤلاء نوعين من الفساد : فساد العلم ، وفساد الإرادة ؛ فساد العلم في قوله : ﴿ إِنِّي يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ، وفساد الإرادة في قوله : ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ فهو ميّال مع نفسه أين مالت به ، حق أو باطل هدى أو ضلال أيّ كان الذي تميل إليه نفسه هو يتبعها .

﴿ إِنِّي يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ والواجب على من جاءه الهدى من ربه أن يترك الظن البئيس وأن يترك أيضا اتباع أهوائه الباطلة وأن يلزم الحق والهدى الذي جاءه من رب العالمين .

هذا السياق العظيم المبارك لو تأمله المتأمل وتدبره المنصف لوجده كافياً وافياً شافياً في إبطال كل التعلقات التي لا يزال إلى زماننا هذا يُتلى بها أقوام وأقوام ، أناسٌ يتعلقون بشجرة ، وآخرون يتعلقون بضريح أو قبر ، وآخرون يتعلقون بصخرة أو حجر ، إلى غير ذلك من التعلقات ؛ هذا السياق وحده كافٍ في إبطال كل التعلقات .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنِ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا إِثْمُ أَبَائِكُمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) ﴾ ؛ بعض الناس قد يقرأ هذه الآيات وهو يمارس أعمالاً من جنس ما أنكر في هذه الآيات وأبطل في هذه الآيات ويفهم أن هذه الآيات لا علاقة له بها ، هذه آيات تتحدث عن المشركين الأول ولا تعنيه بشيء ولا تخصه بشيء ، فيا سبحان الله !! يمارس العمل نفسه الذي كان يمارسه أولئك ثم يظن أن الآية لا تعنيه !! والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القم: ٤٣] ، إذا كان قولكم قول هؤلاء وفعلكم فعل هؤلاء ما الذي يميزكم عنهم ؟ ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ .

إذا هذه الآيات الكريمة مبطلّة وناسفة وهادمة لكل التعلقات أيّاً كانت ، ذُكر في الآية اللات والعزى ومناة فكل ما كان من هذا القبيل من تعلقٍ بشيخ أو ولي أو تعلق بشجر أو تعلق بحجر - وهي في الغالب لا تخرج عن هذه الأشياء - بُيّن في الآية فساد هذا العمل وشناعة هذا الصنيع وأنه أمرٌ باطل وعملٌ فاسد ما أنزل الله به من سلطان ، وما حقيقة هذا الأمر إلا أسماء سمّاها هؤلاء ، وتجد الأسماء تتغير ، والتعلقات هي التعلقات ، يأتي أناس مثلاً ويقولون "سيدنا فلان" ويُعظم ضريحه وتتعلق

القلوب به ويُقصد في أوقات معينة ذبحاً عنده إراقةً للدماء نذراً له خشوعاً وعكوفاً ، نفس الأعمال التي تمارس هي بذاتها تمارس

فإذاً هذه الآيات الكريمات ينبغي على كل مسلم أن يتدبرها حق التدبر ، وأن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيده من ذلك . ولنتنبه في هذا المقام؛ النبي عليه الصلاة والسلام أعطى في هذا المقام تحذير قوي جداً ، وسيأتي معنا الحديث قال : ((للتبع سنن من كان قبلكم)) أي احذروا ذلك ، كما سيأتي معنا في حديث أبي واقد الليثي . فإذاً هذه الآية قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ هي في مقصود هذه الترجمة وهو إبطال التعلقات الباطلة ؛ التبرك بشرك أو التبرك بحجر أو التبرك بشيخ أو التبرك بأشياء من هذا القبيل ؛ هذه كلها ما أنزل الله بها من سلطان كما هو مبين في هذا السياق المبارك .

قال رحمه الله تعالى :

عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الله أكبر إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف: ١٣٨] لتركن سنن من كان قبلكم)) رواه الترمذي وصححه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه وأرضاه . وأبو واقد الليثي من مُسلمة الفتح وكان عددهم يبلغ الألف أو يزيد عليه ، أسلموا في ذلك الوقت إما في يوم الفتح أو قبيله في ذلك الوقت أسلم عدد يصلون إلى الألف أو يزيدون .

يقول أبو واقد : ((خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين)) ؛ وحنين بعد الفتح .

«خرجنا إلى حنين» : أي مقاتلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . تأمل الآن قوم من المسلمين ممن أكرمهم الله عز وجل بصحبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، أيضاً ممن أكرمهم الله عز وجل بحمل السلاح والخروج في جيش النبي عليه الصلاة والسلام نصرته للدين وذباباً عن حماه ومقاتلة للمشركين وبصحبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ هذه المعاني كلها لا تغيب عن بالك .

يقول : ((خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر)) ما معنى ذلك ؟ وما مراده بذلك ؟ أما معناه : أي قد أسلمنا حديثاً ، دخولنا في الإسلام لوقت قريب وقليل جداً ، ومن المعلوم أن حديث الإسلام لا يكون عنده من التمكن والفهم والعمق في فهم حقائق الدين وقواعده مثل من كان قديم الإسلام راسخ الإسلام . فقدّم بهذه المقدمة اعتذاراً للخطأ الذي بدر منهم سببه ما أشار إليه بقوله «ونحن حدثاء عهد بكفر» أي عهدنا بالكفر حديث .

قال : ((وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة)) أي أخرى ((فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)) ؛ هذا الكلام الذي قاله قدّم بمقدمة يعتذر عن قولهم لهذا الكلام بأنهم كانوا حدثاء عهد بكفر .

قال : ((وللمشركين سدرة)) أي شجرة من شجر السدر .

((يعكفون عندها)) العكوف : هو المكث الطويل ؛ كان المشرك يأتي عند هذه الشجرة ويمكث الساعتين الثلاث الأربع يجلس أو يقف خاشعاً متذللاً منكساً رأسه ، هذا العمل يسمى «عكوف» ، يعكف عندها أي يمكث طويلاً خاشعاً متذللاً .
((وينوطون بها أسلحتهم)) ينوطون : أي يعلّقون أسلحتهم على تلك الشجرة ، لماذا يعلّقون السلاح عليها ؟ حتى يبارك السلاح ، عندما يلمس الشجرة ويبقى معلقاً بها وقتاً تنزل بها بركة مزعومة عند هؤلاء من الشجرة فتحلّ فيه . فيعلّقون أسلحتهم بها من أجل أن تبارك تلك الأسلحة .

فهذا تبرك ، والأول عكوف ، وأمر ثالث دل عليه السياق وهو تعظيم هذه الشجرة ؛ حُصّت من بين الأشجار بأن عُظمت ، وبناء على هذا التعظيم حصل العكوف وحصل التبرك ، وإلا هي في الأصل شجرة مثل غيرها من الأشجار لكن عظم هؤلاء الجاهليون تلك الشجرة وكان لها تعظيم في قلوبهم فترتب على ذلكم العكوف والتبرك .
والشركات التي اجتمعت فيهم تتلخص في هذه الأمور الثلاثة : التعظيم ، والعكوف ، والتبرك .

((يقال لها ذات أنواط)) وهذا الاسم أخذه من الصنيع الذي يفعلونه وهو التعليق ، ينوطون : أي يعلّقون أسلحتهم ؛ فبناءً على ذلك سميت «ذات أنواط» .

قال : ((فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)) أي عيّن لنا شجرة معيّنة بحيث نقصدها ونعلق عليها الأسلحة مثل ما يعلّقون أسلحتهم عليها ، قالوا ذلك لأن القوم بسبب كونهم حدثاء عهد بكفر لم يحصل عندهم العمق في الفهم لمعاني التوحيد ومعاني «لا إله إلا الله» ودلالة «لا إله إلا الله» . هم قالوا «لا إله إلا الله» وشهدوا بكلمة التوحيد ودخلوا في هذا التوحيد وآمنوا بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لكن قالوا هذه الكلمة "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، وخفي عليهم لحداثة عهدهم بالكفر أنّ هذا ينافي التوحيد الذي نطقوا هم بكلمته .

نرجع مرة ثانية نقول : هؤلاء أكرمهم الله بالصحبة والإسلام ومرافقة النبي عليه الصلاة والسلام والخروج معه مقاتلين في سبيل الله وخفي عليهم ذلك ؛ أليس كونه يخفى على أناس في مثل هذا الزمان وما هو أيضاً أوضح منه من باب أولى ؟! إذا كان خفي على هؤلاء وهم مع النبي عليه الصلاة والسلام فكيف بمن بعد عهده وأيضاً قلّ حظه ونصيبه من العلم الشرعي والدراية بأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام! أو زاد على ذلك بأن ابتلي في بلده بأئمة ضلال لا يبيّنون له الكتاب والسنة وإنما يبينون له الظن وما تهوى الأنفس .

مرةً أقرأ على رجل آيات في التوحيد لأني وجدت عليه مخالفة لها فقال لي : "أنا من البلد الفلاني ما أحد قرأ علينا هذه الآيات" ، وهذا يدل أن كثير من الناس يبحث عن الخير لا يريد الخرافة ولا يريد الضلال ولا يريد التعلقات الباطلة؛ لكنه نشأ بين أئمة ضلال ودعاة باطل فأركسوه في باطلهم وأوقعوه في ضلالهم والعياذ بالله .

((فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر)) وفي رواية قال : ((سبحان الله)) ؛ «الله أكبر» تعظيم لله سبحانه وتعالى أن يقال هذا الكلام الباطل الذي ينافي كلمة التوحيد وينافي

التوحيد . ((الله أكبر)) يعظم الله سبحانه وتعالى . وفي رواية ((سبحان الله)) أي أنزه الله سبحانه وتعالى ، والله عز وجل ينزه ويعظم عن مثل هذه الأقوال . ولهذا يستحب للإنسان إذا سمع القول الباطل أن يكبر تعظيماً لله أو يسبح تنزيهاً لله ، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] أي تنزهه وتقدس عن ذلك جل وعلا.

((فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر - وفي رواية سبحان الله - إنها السنن)) بضم السين أي الطرق ؛ طرق الجاهلين وسبل الضالين .

قال: ((الله أكبر إنها السنن)) ما معنى إنها السنن ؟ أي أمور ماضية موجودة ولها أهلها في كل زمان إلى قيام الساعة ، أمور باقية وماضية ومستمرة ولها أهلها أعادنا الله سبحانه وتعالى من سبل الضلال وسنن الضلال .
((إنها السنن)) أي الطرق وهي طرق ماضية ، في كل زمان لها أنصار ولها أعوان ولها أتباع .
فقال ((إنها السنن)) أي الطرق ؛ طرق الضلال وطرق الباطل .

((قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ})) ؛ مع موسى علمهم التوحيد وعلمهم الحق وعلمهم الهدى فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم وقالوا "يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" !! وهؤلاء وهم حدثاء عهد بكفر مروا بشجرة للمشركين يعلقون بها أسلحتهم قالوا "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((قلتم والذي نفسي بيده)) يحلف بالله سبحانه وتعالى ((كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون)) .

ثم قال عليه الصلاة والسلام محذراً ومنذراً ((لتركن)) هذا تحذير قاله عليه الصلاة والسلام مثله في الحديث الآخر ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ فيقول ذلك تحذيراً وإنذاراً ونصحاً لأمته .
((لتركن سنن من كان قبلكم)) سننهم : أي طرقهم وسبلهم ، وفي الحديث الآخر قال : ((شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ولم خص جحر الضب مع أن الزواحف كثيرة ولها جحور مختلفة فخص من بينها جحر الضب لماذا؟ لأن جحر الضب أكثر جحور الزواحف التواء وتعقيدا ، جحر ملتوي ومعقد. أي لو دخلوا في وعورة وفي أعمال معقدة وفي صفات سيئة جداً لوجد في هذه الأمة من ينهج نهجهم ويسلك مسلكهم ((حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) هذا يقوله عليه الصلاة والسلام تحذيراً للأمة . وانظر مصداق قوله عليه الصلاة والسلام في واقع عدد من الناس ؛ ما أن تشتهر مثلاً قصّة شعر لبعض الكفار إلا ويتسابق عدد من أبناء المسلمين أو بناتهم لمحاكاتها ، أو لبس من اللباس أو مشية من المشيات أو أمر من الأمور نسأل الله العافية والسلامة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النجم .

الأولى من المسائل المستفادة من هذه الترجمة بما فيها من أدلة : «تفسير آية النجم» أي : قول الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ (١٩) والآيات بعدها ، وقد مر معنا بياناً لمعناها .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذي طلبوه .

«معرفة صورة الأمر الذي طلبوه» أي طلبه هؤلاء الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام والذين ذكر خبرهم أبو واقد في هذا الحديث . وصورة الأمر مرت معنا : أنهم طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يعينها ويخصها من بين الشجر من أجل أن يعلقوا عليها أسلحتهم مثل ما أن للمشركين شجرة يعكفون عليها ويعلقون عليها أسلحتهم ، فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام ذلك قالوا : "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

أي لم يتخذوا ابتداءً شجرة ويذهبوا إليها ويعلقوا عليها أسلحتهم وإنما طلبوا فقط قالوا "اجعل لنا" ، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه .

«كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك»؛ يعني عندما قالوا "اجعل لنا ذات أنواط" هل قصدوا مخالفة الدين ومصادمة ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟ هل هذا كان مرادهم ؟ لا والله ؛ القوم أسلموا ودخلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهم معه ذاهبون للقتال في سبيل الله ولنصرة دين الله تبارك وتعالى فما قصدوا مخالفة الدين . إذاً ماذا كان مقصدهم ؟ قال : «كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه»؛ ظنوا أن هذا العمل يحبه الله . وهذا حال كثير من الناس يكون ما أراد بعمله الباطل إلا الخير ، وما أراد به إلا التقرب إلى الله سبحانه ، وما أراد به إلا الفوز عنده ، حتى عبدة الأوثان إذا قيل لهم في عبادتها قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٢٣] . فإذا هؤلاء ما قصدوا مصادمة الدين ومخالفة الشرع وإنما قصدوا التقرب إلى الله، ظنوا أن هذا العمل عمل صالح يحبه الله سبحانه وتعالى.

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا ، فغيرهم أولى بالجهل .

وهذا تنبيه عظيم جداً قال : «إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل»؛ إذا جهلوا هذا وهم في زمن النبوة ومع النبي صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة وذاهبون في قتال في سبيل الله وجهلوا هذا الأمر الذي ينافي «لا إله إلا الله» خفي عليهم ؛ فكون غيرهم ممن جاء بعدهم ولاسيما بقرون كثيرة يجهل ذلك من باب أولى .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

لأنهم صحابة ، أصحاب النبي ، أكرمهم الله بصحبته ، وأكرمهم الله بالخروج معه للقتال في سبيل الله ولنصرة دين الله تبارك وتعالى ؛ فلهم من الحسنات والوعود بالمغفرة ما ليس لغيرهم ، فمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما سيأتي معنا تنبيه الشيخ اشتد إنكاره عليهم في قولهم "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

السابعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم : لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله : ((الله أكبر إنها السنن لتبعن سنن من كان قبلكم)) فغلط الأمر بهذه الثلاث .

أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يعذرهم بل أنكر عليهم وغلط في الإنكار عليه الصلاة والسلام بهذه الثلاث التي قالها لهم عليه الصلاة والسلام ؛ قال ((الله أكبر)) ، وقال ((إنها السنن)) ، وقال ((لتبعن سنن من كان قبلكم)) .

الثامنة : الأمر الكبير -وهو المقصود- أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} .

«الأمر الكبير- وهو المقصود- أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل» ؛ انتبه الآن يعني هؤلاء الصحابة لما قالوا للنبي اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ماذا قال النبي ؟ قال ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) أي قولكم مثل قولهم ، حتى وإن اختلفت الألفاظ ؛ ألفاظكم هي "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، وأولئك قالوا "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" إن اختلف اللفظ المضمون واحد ، ولهذا قال ((قلتم كما قالوا)) اللفظ مختلف لكن المضمون واحد ، وهذا ينبه أن الشرك يبقى شركاً وإن تغيرت ألفاظه.

التاسعة : أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك .

قوله «على أولئك» : أي على أولئك الصحابة رضي الله عنهم الذين قدّم الاعتذار عنهم أبو واقد الليثي رضي الله عنه بقوله ((ونحن حدثنا عهد بكفر)) ، فخفي على أولئك هذا الأمر مع أنه من معنى «لا إله إلا الله» ، إذ إنَّ من معنى «لا إله إلا الله» أن لا تتخذ تلك الأشياء التي فيها تعلقات ما أنزل الله بها من سلطان . ((اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)) يعني عيّن لنا شجرة تكون لنا مثلهم نعلّق عليها أسلحتنا ، فقال عليه الصلاة والسلام ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى : {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ})) ؛ فإذاً هذا من معنى «لا إله إلا الله» وقد خفي على أولئك ، وهم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وآمنوا به! لكنهم كانوا حدثنا عهد بكفر؛ أي عهدهم بالكفر كان قريب وقدّم بذلك أبو واقد رضي الله عنه معتذراً أن هذا الخطأ الذي قد وقع منهم بقولهم هذا القول أو طلبهم ذلك الطلب .

العاشرة : أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

«أنه حلف على الفتيا» لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((قلتم والذي نفسي بيده)) ؛ فحلف صلى الله عليه وسلم بالله ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا .

«أن الشرك فيه أكبر وأصغر» ؛ ومن الشرك الأصغر الوسائل التي تفضي إلى الشرك الأكبر وتؤدي إليه ، والشرع جاء بالنهاي عن الشرك الأكبر وكل أمرٍ يفضي إليه ؛ فهذا الحديث يفيد أن الشرك فيه أكبر وأصغر من أين ؟ قال: «لأنهم لم يرتدوا بهذا» لأنهم لو ارتدوا لطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجددوا الإيمان وأن ينطقوا بالشهادتين ليدخلوا في الإسلام من جديد . فإذا لم يرتدوا بذلك لأنهم لم يفعلوا ذلك ، لكن لما رأوا المشركين عندهم تلك الشجرة التي يقال لها ذات أنواط وكانوا حدثاء عهد بكفر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

الثانية عشرة : قولهم " ونحن حدثاء عهد بكفر " فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك .

قوله أي أبو واقد : " ونحن حدثاء عهد بكفر " أي عهدنا بالكفر كان قريباً هذا يستفاد منه : أن غيرهم لا يجهل ذلك ، يعني من رسخ إيمانه وتعمق في الدين وكان متقدماً في الإسلام والإيمان لا يجهل ذلك ، ولهذا إنما حصل هذا الطلب من هؤلاء الذين قدّم أبو واقد عنهم هذا الاعتذار بقوله "ونحن حدثاء عهد بكفر" ، فحديث العهد بكفر لم يستوعب بعد الإسلام بتفاصيله وحقائقه وقواعده ، أما الذي رسخ في الإسلام وتقدم فيه وعرف الأحكام لا يجهل مثل ذلك لما أكرمه الله سبحانه وتعالى من رسوخ في الإيمان وفهم للدين .

الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((الله أكبر)) يعني تعجب من مقاتلتهم هذه وكبر الله سبحانه وتعالى ، فهذا فيه جواز التكبير عند التعجب خلافاً لمن كره ذلك .

الرابعة عشرة : سد الذرائع .

وهذا أيضاً واضح في الحديث ، وهؤلاء إنما قالوا هذه الكلمة عن جهل ، فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام: ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)) .

الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية .

وهذا مستفاد من نهي النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء عندما قالوا "اجعل لنا ذات أنواط" ؛ هذا فيه تشبه بأهل الجاهلية فنهاهم عن ذلك عليه الصلاة والسلام وحذّروهم منه صلى الله عليه وسلم ؛ فيستفاد من ذلك النهي عن التشبه بأهل الجاهلية في كل ما كان من أعمالهم أو أفعالهم أو خصائصهم أو نحو ذلك .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

وهذا واضح لأن النبي صلى الله عليه وسلم في عباراته كبر الله ثم قال ((إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى)) ثم قال ((لتركن سنن من كان قبلكم)) هذا فيه غضب النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال هؤلاء هذا القول .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : " إنها السنن " .

أي أن هذا الأمر الذي هو الجاهلية سُنن ماضية ولها من يثيرها ولها من يفعلها وهي باقية ؛ فهذه قاعدة كلية في قوله ((إنها السنن)) فيها التنبيه على وجود ذلك وبقائه ، وتحذير أمة الإسلام من أن يصنعوا صنيع الجاهلية أو يفعلوا أفعالهم .

الثامنة عشرة : أن هذا علم من أعلم النبوة لكونه وقع كما أخبر .

قال ((إنها السنن)) ، وقال ((لتكن سنن من كان قبلكم)) وهذا إخبارٌ عن أمر مستقبل ووقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه ، فكان ذلكم علماً من أعلام نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

التاسعة عشرة : أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

نعم «أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا» أي تحذير لنا أن نحذر مثل أفعالهم أو أن نعمل مثل أعمالهم ، ليست معلومات مجرد تذكر لتُعرف بل ذكرت من أجل التحذير من أن يصنع أحد مثل صنيعهم أو يفعل مثل فعلهم ؛ فهي سيقّت مساق التحذير من تلك الأعمال . هذا المراد بقول الشيخ رحمه الله «فإنها لنا» يعني تحذير لنا من أن نفعل مثل أولئك .

العشرون : أنه متقرر عندهم أن العبادات مبنها على الأمر ، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر ؛ أما : "من ربك " فواضح ، وأما " من نبيك " فمن إخباره بأبناء الغيب . وأما " ما دينك " فمن قولهم " اجعل لنا إلها " إلى آخره .

« أنه مقررٌ عندهم أن العبادات مبنها على الأمر » يعني أمر الشارع بذلك ، يعني لا يجوز للإنسان أن يفعل أي عبادة من العبادات إلا إذا أذن له الشارع بذلك ، ولهذا لم يفعلوها ابتداءً ، يعني كونه متقرر عندهم أن العبادات مبنها على الأمر لم يفعلوها ابتداءً وإنما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم "اجعل لنا" ، فقولهم "اجعل لنا" هذا يدل على أنه متقرر عندهم أن العبادات مبنها على الأمر بدليل أنهم لم يفعلوا ذلك ابتداءً .

قال رحمه الله «فصار فيه التنبيه على مسائل القبر» : أي الثلاثة من ربك وما دينك ومن نبيك .

قال : «أما "من ربك" فواضح» أي واضح في ما ذكر في سياق هذا الحديث من أن البركة إنما تُنال من الله وأن التعلق لا يكون إلا بالله وأن الأمور إنما هي كلها بيد الله ، فلا يلجأ إلا إليه ولا يُعبد إلا هو ولا يُقصد إلا هو سبحانه وتعالى ، والحذر من تلك الأعمال أعمال الجاهلية ؛ فهذا يستفاد فيه من ربك ؟ أي أن ربي الذي أعبدته وأقصدته والتجأ إليه أخضع له وأصرف له جميع عباداتي وأتوكل عليه إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده .

قال : «وأما "من نبيك" فبإخباره بأبناء الغيب» فهذا علم مثل ما قال الشيخ قريباً من أعلام النبوة، يخبر عليه الصلاة والسلام عن أمور مستقبلية وتقع طبقاً لما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

قال : «وأما "ما دينك" فمن قولهم : "اجعل لنا إلها"» ؛ وهذا فيه أن الدين هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والامتثال لأمره والانقياد لما جاء عنه سبحانه وتعالى، وترك ما سوى ذلك ، وهذا يستفاد كله من قوله "اجعل لنا إلها" ، فهذا يفيد أن العبادة مبنها على الأمر والتسليم والانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى وترك ما سوى ذلك مما لم يأت به أمر الله جل وعلا وأمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

الحادية والعشرون : أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر سنة هؤلاء وسنة هؤلاء في مقام الدم ، في قوله أولاً ((الله أكبر إنها السنن)) ثم قوله ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقوله : "ونحن حدثاء عهد بكفر" .

وهذه فائدة ثمينة يختم بها رحمه الله تعالى مسائل هذا الباب «باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما» : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ؛ وهذا مستفاد من قول أبي واقد "ونحن حدثاء عهد بكفر" ، فالمنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه إذا دخل في الحق لا يؤمن أن يكون فيه شيء من الرواسب أو البقايا التي من عقيدته قبل هدايته إلى الحق ؛ فيقولها أو يقررها أو يدعو إليها ظناً أنها من الحق ، وهي في الواقع من بقايا اعتقاداته الأولى أيام جاهليته ؛ فانظروا هذه الطريقة المسددة الموفقة المباركة التي كان عليها أبو واقد ومن معه من الصحب الكرام "قالوا اجعل لنا" يعني لم يتبنوا تلك الأمور مباشرة ويدعو الناس إليها وإنما قالوا "اجعل لنا" فلما نبههم توقفوا عن هذا الأمر ، بينما بعض الناس قد يدخل في الإسلام وتكون عنده بعض الرواسب ولاسيما من أمور كانت تعجبه أو نفسه تميل إليها ويبادر لدعوة الناس إليها ما الذي يحدث حينئذ ؟ انظر إلى الفرق الضالة المنتسبة إلى الإسلام -وهي كثيرة جداً- تجد في كثير منها تداخلت الأمور وأصبحت عندها مزيج مثلاً إما من عقائد الهندوك أو عقائد المجوس أو عقائد اليهود أو غير ذلك ، وهذه ترجع في تقديرها والله تعالى أعلم إلى أحد أمرين :

- إما سوء طوية من بعضهم ، يعني يدخل في الإسلام ويتظاهر أنه من أهل الإسلام ثم يشق في الناس مذهباً أو معتقداً يمزج فيه بين أمور ينتقيها من الإسلام وأمور من الديانة التي كان عليها أو الديانات الأخرى ، وحصل مثل هذا أن ناساً اندس وتظاهر بالإسلام ثم أخذ يقرر نحلة أو عقيدة أو مذهباً فوجد له أتباع في عقيدته أو مذهبه هذا أمر .
- الأمر الآخر: قد يكون يريد الخير لكنه تعجل ولم يتأن ولم يتعلم ولم يتفقه ومجرد أن دخل في الإسلام وأخذ بشيء من الجوانب التي في هذا الدين بدأ يدعو ويتصدر للدعوة ولم ترسخ قدمه في العلم والإيمان أصبحت دعوته مزيجاً بين الشيء القليل الذي تعلمه من الإسلام والركام الذي كان معه في جاهليته قبل إسلامه . ولهذا لما تطالع في كتب الفرق المنتسبة إلى الإسلام وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام ((ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) تجد أن كثير من هذه الفرق فيها هذا المعنى الذي أشرت إليه .

فإذاً المصنف رحمه الله تعالى لما ذكر هذه الفائدة؛ فيها التنبيه إلى أن من كان حديث عهد بجاهلية عليه أن يتأن ويتعلم ويتفقه ولا يبادر لأي عمل من الأعمال حتى يتحقق من أن الشرع أذن به وأمر به ودل عليه ، لا يعمل هو فضلاً عن أن يكون داعيةً للآخرين إلى فعل ذلك الأمر الذي ربما يتبين أنه مما لا أصل له في دين الله وأنه من بقايا جاهليته قبل دخوله للإسلام . فهذه مسألة ثمينة ومهمة نبه عليها المصنف رحمه الله تعالى ، والله تعالى أعلم.